حلقات المكتبة:

ميسون الدويري

ذكريات التعليم:ما بين إمارات الساحل المتصالح و الإمارات العربية المتحدة

عبر هذه الصفحات سأسرد لك، عزيزي القارئ، بعضاً من ذكريات والدي وذكرياتي في الإمارات، قبل الاتحاد، وفي السنوات الأولى لقيامه... سأتذكر، ووالدي، سنوات الابتعاث في دولة الإمارات في الفترة التاريخية الانتقالية المميزة التي كانت بعد اكتشاف النفط وقبل قيام الاتحاد بقليل... المرحلة الانتقالية بين السنوات العجاف وأعوام الغيث والرخاء...

وقبل الخوض في تفاصيل تلك المرحلة سأعرج على واقع التعليم في الدول المجاورة، تلك الدول التي كانت الداعم الرئيس للتعليم في الإمارات كي يصل إلى ما وصل إليه اليوم من تطور وازدهار؛ ولأن والدي رجل تربية وتعليم؛ أفنى كل عمره بين أمهات كتب كبار التربويين والفلاسفة؛ العرب والمسلمين والغربيين، يبحث ويدرس ويطبق المبادئ التي تعلمها، ولأن مناهج وطرق التربية والتعليم في عالمنا العربي ما زالت معتمدة اعتمادا كبيرا على النظريات والتطبيقات التي ينتجها الغرب؛ سأحول أن أعكس وأربط بعضا من تلك النظريات التربوية الغربية بالفلاسفة العرب والمسلمين، وأبين كيف أن لهؤلاء الفلاسفة بصمات وإرثا تعليميا غنيا؛ اعتمدَتْ عليه، بل استمدت منه النظريات الغربية الكثير من الأفكار والنظريات والممارسات.

التعليم في الامارات ما قبل الاتحاد

تعليم الكتاتيب: مثل حال جميع الدول العربية والإسلامية؛ بدأ التعليم في الإمارات في بدايات القرن العشرين، بما يسمى بـ«الكتاتيب» وقد كان القائم على هذا التعليم رجلَ دينٍ، ويكون إمام المسجد في الغالب؛ إذ يقوم بتعليم وتحفيظ القرآن وبعض الأحاديث وبعض مبادئ الحساب والقراءة والكتابة.

التعليم شبه النظامي (خلال الحقبة الممتدة ما بين 1907 و1953): وقد كان لتجارة اللؤلؤ دور رئيسي في وجود هذا النوع من التعليم؛ فقد تأثر تجار اللؤلؤ بحركات الإصلاح واليقظة العربية؛ وقاموا بافتتاح المدارس واستقدام العلماء للتدريس فيها، وكان من أشهرها المدرسة التيمية المحمودية في الشارقة سنة 1907، والإصلاح سنة 1935 وفي دبي الأحمدية وقد تأسست سنة 1912م، والسالمية سنة 1923م، والسعادة سنة 1925م، ومدرسة الفلاح سنة 1926 وفي أبو ظبي تأسست مدرسة «آل عتيبة» سنة 1930، وظهرت بعد ذلك مدارس عدة تنتمي للنمط نفسه في مدن الإمارات الأخرى.

ولكن وبسبب ظهور اللؤلؤ الصناعي، الذي أثر بشكل كبير على مهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ في منطقة الخليج، إضافة إلى تأثير الحرب العالمية الثانية على التبادلات التجارية، فقد اضطرت أغلب هذه المدارس الرائدة التي تخرج فيها نخبة المثقفين من الطلائعيين في الإمارات إلى أن تغلق أبوابها.

التعليم النظامي: يعود الفضل في تطور التعليم النظامي في هذه الحقبة لدعم الدول الشقيقة، لا سيما دولة الكويت؛ وكان الدعم متمثلا في إرسال البعثات التعليمية، وتوفير المناهج الدراسية، ولذا يمكن القول إن التعليم النظامي في الإمارات بدأ عام 1953 عند وصول أول بعثة تعليمية من دولة الكويت؛ حيث أسست في ذلك العام مدرسة القاسمية التي ساعدت على تطور التعليم من النمط شبه النظامي إلى التعليم النظامي، فأصبح الطلاب موزعين إلى فصول، لهم مقررات دراسية، ويخضعون لامتحان في نهاية العام الدراسي، يمنحون بعده شهادة دراسية، وقد ضمّت هذه المدرسة، بالإضافة لطلاب الشارقة، طلابًا من دبي وعجمان أيضًا، وكانت المواد التي تدرس فيها: الشريعة الإسلامية، اللغة العربية، واللغة الإنجليزية، والرياضيات، العلوم، والاجتماعيات، والتربية البدنية، والتربية الفنية.

وفي عام 1968 أنشأت الكويت مدرسة عبد الله السالم، وهي آخر ما ساهمت به الكويت في مجال التعليم في الشارقة. أما أبو ظبي فقد عرف التعليم النظامي عام 1958م؛ عندما افتتحت المدرسة الفلاحية، ثم مدرسة البطين الابتدائية في منطقة أبو ظبي، والنهيانية الابتدائية في منطقة العين... وتوالت المدارس؛ وفي عام 1966م شهد التعليم تطورًا ملحوظًا؛ لأنه العام الذي تسلم فيه المغفور له -بإذن الله- الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان مقاليد الحكم في أبو ظبي، كما أنشئت دائرة للمعارف في ذلك الوقت. وبعد عام 1962 منعطفا مهما في تاريخ التعليم في إمارات الدولة؛ إذ اكتملت المراحل التعليمية الثلاث: الابتدائية والإعدادية والثانوية، لكن طلاب الصف الثالث الثانوي استمروا في تقديم امتحانات شهادة الثانوية العامة في دولة الكويت حتى عام 1967م، حين عقدت الامتحانات على أرض الدولة لأول مرة. أما في دبي فقد بدأ التعليم النظامي عند وصول البعثة الكويتية عام 1956م التي ساهمت في تطوير المناهج في المدرسة الأحمدية؛ فأدخلت الرياضيات والعلوم والجغرافيا إلى المناهج المعتمدة في تلك المدرسة. وبعد ذلك افتتحت العديد من المدارس النظامية، للبنين وللبنات، منها: مدرسة الشعب المتوسطة للبنين، مدرسة المكتوم، ومن المدارس ذات الطابع الديني: مدرسة الماجد، ومدرسة السعادة، ومدرسة الهداية.

خصائص التعليم النظامي في الإمارات (1953-1971): قام النظام التعليمي في تلك الفترة على أسس علمية وتربوية مستمدة من التجارب القائمة في الدول المجاورة الشقيقة، فالمقررات الدراسية في الإمارات الشمالية كانت تأتي من الكويت، وكانت متنوعة وتساير

عصرها، كما تضمّنت أنشطة ترفيهية رياضية وفنية متنوعة. فيما توزعت الدراسة بين ثلاث مراحل: الابتدائية 6 سنوات، الإعدادية 3 سنوات، الثانوية 3 سنوات. وقد تولى مسؤولية التعليم في هذه الفترة معلمون من أبناء الدول العربية والخليجية، وكان جميع المعلمين تقريبًا ينتمون إلى البعثات الكويتية، والقطرية، والمصرية، التي توزعت على كافة الإمارات، باستثناء أبو ظبي التي كان للأردن الحصة الكبرى فيها... وانسحب ذلك طردًا على مناهج التعليم... إلّا أن المنهج الغالب كان المنهج الكويتي. أصبح التعليم في أبو ظبي -فيما بعد- يخضع لإشراف إدارة التعليم، ومتابعة الحكومات المحلية، ودوائر المعارف التي أنشئت في الدولة، وكانت إمارة أبو ظبي تعتمد على المنهاج والكادر التعليمي الأردني والبحريني في الغالب، تحت إشراف حكومي.

التعليم في دولة الكويت

مر التعليم في دولة الكويت بمرحلتين: الأولى تمثلت بحقبة ما قبل التعليم النظامي، وهي التعليم بوساطة الكتاتيب، والأخرى تمثلت بالمدارس النظامية، ويرجع تاريخ أولى المدارس النظامية إلى عام 1911م، حيث أنشئت أول مدرسة نظامية، وهي المدرسة المباركية، وتطورت حركة التعليم في الكويت إلى أن أنشئت جامعة الكويت في عام 1966.

بدأ التعليم في الكويت بالمسجد أو الكتاتيب مثل جميع الدول العربية والإسلامية، ولم يقتصر دور إمام المسجد على الإمامة في الصلاة؛ بل امتد ليشمل الوعظ وتعليم الدين وتدريس القرآن الكريم؛ ولذلك يعتبر المسجد أول مراحل التعليم في الكويت؛ فهناك ما يثبت دور المسجد في نشر العلم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ ففي ذلك الوقت تم نسخ العديد من الكتب والمخطوطات في مدينة الكويت، وكانت الدراسة في الكتاتيب مقتصرة على تعليم القرآن، واللغة العربية، ومبادئ الحساب. وكان يقام احتفال عند إتمام الطالب للدراسة.

أما التعليم النظامي فبدأ مع إنشاء المدرسة المباركية، وشملت مواد التدريس القراءة والكتابة والحساب. وفي عام 1936-1937 عندما تم تغيير المنهج القديم، وبدأ التعليم الجديد بمناهج أكثر موضوعية بوساطة أساتذة جلبوا لهذه المهمة من فلسطين، تم إنشاء مجلس المعارف عام 1936؛ فكان هذا المجلس نواة تكوين وزارة التربية. اهتم مجلس المعارف بتطوير التعليم عن طريق ابتعاث طلبة كويتيين لإكمال تحصيلهم العلمي؛ وقد اشترط مجلس المعارف على المبتعثين أنهم حالما ينتهون من تحصيلهم، يزاولون التدريس بمدارس الكويت. كانت أول بعثة للطالبات الكويتيات عام 1956 أرسلت إلى القاهرة وتكونت من 7 طالبات، وفي عام 1961 بعد إلغاء اتفاقية الحماية البريطانية تم تشكيل الحكومة الكويتية متضمنة وزارة المعارف التي تغير اسمها إلى وزارة التربية والتعليم عام 1962، ثم إلى وزارة التربية عام 1965.

التعليم في الأردن: سنوات الدراسة، التعليم والعمل للمرأة

تشير الدراسات والبحوث إلى وجود مدارس في منطقة الأردن منذ العام 1516، وكان على شكل حلقات علمية عبر نظام التعليم الأهلي المعروف بالكتّاب، وهي وسائل وحلول بديلة لجأ إليها أهالي المنطقة لتعليم أبنائهم، وكانت تدرّس المبادئ الأساسية للعلوم الطبيعية، والرياضيات، واللغة العربية إلى جانب العلوم الدينية. وهناك دلائل تشير إلى أن بداية وجود المدارس تعود لعام 1872 وذلك تحت الحكم العثماني للمنطقة، وكانت عبارة عن مكتب واحد في «قضاء عجلون» شمال الأردن؛ يتلقى التعليم فيه عشرة طلاب، وهذا المكتب كان من نوع الكتاتيب الخاصة، وليس مدرسة رسمية بالمعنى المفهوم للكلمة الآن. أما افتتاح أول مكتب ابتدائي كمدرسة حقيقية في مركز القضاء في منطقة عجلون في شمال الأردن فيعود لعام 1882، وهو أول توثيق مدون لافتتاح مدرسة ابتدائية، وقد شهد العام 1882 أول جهد يمكن وصفه بمنهجية دولة في مجال التعليم، وجرى ذلك ضمن إدارة المعارف في لواء حوران؛ حيث افتتح عدد من المكاتب الابتدائية في مراكز الأقضية ومن بينها عجلون، وكان هذا المكتب مؤلفا من أربعة محلات، ويتسع لحوالي (150) تلميذا من بينها محل للتدريس وحجرة مخصّصة للمعلم. وبعد تأسيس الإمارة الأردنية عام 1921، بلغت ميزانية التربية والتعليم في العام ذاته ستة آلاف جنيه إسترليني، وبنسبة كبيرة من الميزانية الإجمالية، ثم ارتفعت إلى 22,582 دينارا في عام 1928-1929، وبذلك كانت النقلة الحضارية في مجال التعليم.
وشهد عدد المدارس في عهد الإمارة تطورا تدريجيا وارتفاعا سريعا مباشرا في البنية التحتية للعملية التعليمية، فقد كان عدد المدارس عام 1922-1923، (44) مدرسة ثم وصل عام 1930-1931 إلى ما مجموعه (54) مدرسة، كما شهدت المسيرة التعليمية تطورا موازيا في عدد الطلبة فقد وصل عدد الطلبة الملتحقين في المدارس عام 1922-1923 إلى ما مجموعه 3316 طالبا وطالبة، منهم 2998 طالب و318 طالبة. كانت الشهادات التي تمنح للطلبة في عهد الإمارة على النحو التالي:

- **شهادة الدراسة الثانوية:** وقد بدأ الامتحان لها عام 1933-1934.
- **شهادة الدراسة الابتدائية:** وكانت تمنح للطلبة الذين أنهوا الصف السابع الابتدائي، ونجحوا في الامتحان العام الذي تقدمه الوزارة في نهاية هذا الصف، وقد ظهر أول امتحان لهذه الشهادة عام 1944-1945.
- **شهادة الثانوية الكاملة:** وكانت تمنح لطلبة الرابع الثانوي دون أن يتقدم الطالب فيها لامتحان عام، وكانت أول شهادة ثانوية تمنح للطلبة عام 1925-1926، وكانت مدرسة السلط هي الوحيدة التي تمنح مثل هذه الشهادة.
- **شهادة الثانوية المتوسطة:** وكانت تمنح لطلبة الصف الثاني الثانوي، وقد نجحت أول دفعة في هذه الشهادة عام 1925-1926.
- **الشهادة المدرسية المهنية:** وقد تخرجت أول دفعة فيها عام 1926-1927.
- **الشهادة الابتدائية:** وقد بدأت قبيل عهد الإمارة بقليل، وكان تمنح في معظم مدارس القرى في مستوى الصف الرابع الابتدائي.

وكان هناك اهتمام بالتعليم المهني منذ العام 1924 وكان يشمل التعليم الصناعي، والتعليم الزراعي، والتربية البدنية، والمختبرات والمكتبات، وكانت جميع هذه المواد تشكل جزءا أساسيا من المنهاج الدراسي منذ بداية تأسيس الإمارة.

الاغتراب عن الوطن والسفر إلى أبو ظبي

بعد أن أنهى والدي تعليمة الثانوي التحق بسلك التعليم في الأردن في العام 1956 وانتسب بذات الوقت لجامعة دمشق ليكمل تعليمه الجامعي، فالتحق بقسم الدارسات الاجتماعية والفلسفة، كانت والدتي أيضا معلمة للمرحلة الابتدائية، وكانا قد بدآ حياتهما المهنية

في قرية صغيرة من قرى محافظة عجلون، وعلى الرغم من بساطة الحياة إلا أن لوالدي ذكريات تجعلني أحلم وأتمنى ألف مرة لو أنني عشت مثلها في تلك الحقبة. ذكريات العمل في المدارس البسيطة بالإمكانات المادية والبشرية الكبيرة، بالإخلاص، وحب العمل، والتفاني لتقديم الأفضل للطلاب... ذكريات الحياة الاجتماعية والتكافل وروح التسامح الرائع بين أبناء القرية الواحدة من مسلمين ومسيحيين كانت ومازالت تميز العلاقات بين جميع أطياف الشعب الأردني؛ من جنسيات مختلفة؛ فقد كان يسكن والدي في بيت المزاهرة، وكان يحدثنا عن علاقاتهم الاجتماعية المتميزة، وكيف أنهم في كثير من الأحيان كانوا بمثابة الأسرة الواحدة مع بعضهم بعضا؛ وليس مجرد مستأجر وصاحب ملك... في العام 1968 كان والدي قد أصبح مديرا لمدرسة الطيبة للذكور، ووالدتي مديرة لمدرسة الطيبة للبنات... في ذلك العام، وقبل انقضاء العام الدراسي بقليل، تم ترشيح والدي للعمل في إمارة أبو ظبي، تلك الإمارة الواعدة الفتية التي اكتشف فيها النفط حديثا، وبدأت الإمارة باستقطاب المعلمين من البلاد العربية مثل مصر ولبنان والبحرين، ولكن كان للأردنيين النصيب الأكبر في الانتداب. أخبرني والدي بأنه كانت هناك شروط للانتداب مثل سنوات الخبرة والمؤهل والأقدمية... انطبقت جميعها عليه وتم استكمال أوراق الانتداب والحصول على تصريح الزيارة والعمل من السفارة البريطانية بعمان.

كانت الحياة بسيطة وأحلام الشباب والطموح كبيرة، فكان عرض العمل في الخليج مغامرة لتحقيق تلك الأحلام. كان مغامرة لأنه على ذلك الشاب في بداية الثلاثيين من عمره أن يقرر أن يختار بين العيش بين أفراد عائلته الكبيرة المكونة من أب وأم وإخوة وأعمام وأبناء عمومة، إضافة إلى عائلته الصغيرة؛ زوجته وثلاثة أطفال، وأن يحظى بالدعم الأسري اللامتناهي، أو أن يخوض غمار تجربة الاغتراب وترك كل ما هو مألوف ومعروف ومحبوب ومقرب إلى قلبه، مدفوعا بحماسة الشباب، ومسلحا بعلمه وقدرته وأبناء جيله على إحداث تغيير، ومتيقنا بأن جميع البلاد العربية هي بلاده، مستمدا ذلك من إيمانه القوي بدينه وبقوميته العربية. كان هناك أيضا الخوف من الإخفاق؛ كونه لم تكن ترد أخبار كثيرة عن طبيعة الحياة في هذا البلد الفتي، وإن كانت فهي أخبار تتحدث عن صعوبة العيش وعدم وجود أساليب للراحة والرفاهية. هذا الصراع الذي عاشه والدي قبل أن يقدم على قبول العرض، كان قد ذكره (جراهام ويلسون) في كتابه حول صعوبة استقدام المعلمين إلى الإمارات في تلك الحقبة؛ فعلى الرغم من أن فرق الراتب كان كبيرا جدا بالمقارنة مع ما كان يتقاضاه المعلم في بلده، إلا أن صعوبة الحياة في تلك المرحلة كانت العائق الأكبر لقبول تلك العروض، وهذا ما واجهه أيضا السيد معالي عبد الملك الحمر عندما عينه الشيخ زايد - رحمه الله - لدعم عملية التعليم، فكان استقطاب المعلمين في تلك الحقبة هو أهم المعضلات التي حاول التغلب عليها.

وهنا أتذكر ما كان والدي يكرره دائما عن ثمن الحضارة، كان الناس في الماضي يشعرون بالرضى الكامل عما كانت تسير عليه حياتهم، يكتفون بالقليل، ويدعم جميع أفراد الأسرة بعضهم بعضا ويعتمدون على بعض لإنجاز المهام التي قد تكون متعبة في كثير من الأحيان، ولكن في نهاية اليوم يستشعرون وينعمون بالدفء الأسري وعدم اضطرارهم الى البعد وتحمل ما قد يكدر سير حياتهم وتماسكهم كأسرة واحدة... نعم للحضارة ثمن؛ فهي تعطيك الراحة والاستقرار المادي؛ ولكن قد تسلبك أمورا صغيرة هي بحجم العالم... كرؤية وجه أمك أو أبيك صباحا أو..... ومع وجود كل تلك المثبطات ما كان ليقدم على تلك الخطوة لولا تشجيع والدتي وحماستها أيضا، ولولا يقينه بأنها قادرة على تحمل المسؤولية في غيابه، فكان قرار السفر في الخامس من شهر مايو من سنة 1968. في ذلك الحين لم تكن دولة الاتحاد قد قامت بعد، وكانت بعثته إلى إمارة أبو ظبي مع زميله الأستاذ داود أبو كف كخبراء في تعليم الكبار. قبل الاتحاد كان مجمع المدارس في أبو ظبي لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وعند تأسيس دولة الإمارات كان عدد السكان، بحسب ما جاء في كتاب «زايد رجل بنى أمة» 200 ألف نسمة، وتكاد نسبة الذين كانوا يقرؤون ويكتبون من هؤلاء لا تزيد على الخمس وفي العام الدراسي 1964-1965 كان في أبو ظبي ست مدارس يرتادها 390 من الفتيان، و138 من الفتيات، ويتولى التعليم فيها 33 معلماً، في حين كان في الإمارات الأخرى مجتمعة 31 مدرسة، منها 12 مدرسة للفتيات. أما في دبي والشارقة ورأس الخيمة فكان الوضع أفضل؛ فقد كان التعليم متاحا7% من سكانهم، وكانت النسبة 4% لسكان الفجيرة.

حدثني والدي كثيرا عن رحلته الأولى إلى أبو ظبي، كيف انطلقت السيارة من قريتنا كتم شمال الأردن إلى عمان العاصمة حيث المطار، وكان خط سير الرحلة عمان بيروت، ثم النوم لليلة واحدة هنالك، ثم إكمال الرحلة إلى الدوحة قطر وقضاء ليلة أخرى في العاصمة القطرية قبل الإقلاع إلى أبو ظبي، كانت الطائرة المطلقة من الدوحة صغيرة جدا، وكان الوصول إلى مطار أبو ظبي المتواضع ليلا، ولم يكن فيه كهرباء بعد فكان مضاء بفوانيس زيت تقليدية.

كان في استقبال والدي وزميله (أبو كف) الدكتور عبد الله النسور (رئيس الوزراء الأردني الأسبق) والذي كان يشغل مدير مدرسة جابر بن حيان، اصطحبهما إلى منزله وتناولوا طعام العشاء، ثم قام النسور باصطحابهما في جولة بسيارته ليطلعهما على معالم المدينة. وحسب ما أخبرني والدي لم تتجاوز الجولة مدة نصف الساعة؛ إذ إنه لم يكن هناك غير عمارتين كبيرتين للشيخ خالد، ثم شيد بعد ذلك بجوارهما مجموعة من الفلل، وأصبحت تعرف المنطقة بالخالدية فيما بعد، وكان هناك فندقان: فندق «زاخر» وفندق آخر فقط. كان السكن عبارة عن بيوت يطلق عليها المساكن الشعبية، ولم يكن فيها مكيفات، بل كان هناك مرواح فقط، وكان قد تم بناؤها لأبناء المنطقة؛ ولكن تم الاستفادة منها لتسكين المعلمين وعوائلهم الجدد في المنطقة. وفي بداية السبعينات تم الانتهاء من بناء عمارات سكنية مثل عمارة الشيخ سرور في شارع الشيخ حمدان، فانتقل المعلمون للسكن بهذه الشقق. وعن السكن الشعبي والأسواق الشعبية والأطعمة المتوفرة في ذلك الوقت كان قد حدثني والدي عن تلك الحقبة فقال:

كان السوق الشعبي هو الموجود هناك، وهو مقام على الرمال، ولم يكن مرصوفا، وكانت الدكاكين أشبه بالخيم الصغيرة المصنوعة من عسف النخيل أو القش أو الخشب الخفيف. كان السمك هو المادة الوحيدة الطازجة، أما اللحوم والدجاج فلم تكن تتوفر باستمرار، وإن وجدت فهي مجمدة. البطاطا كانت هي الخضار الوحيدة الموجودة، ولم يكن هناك أي من أنواع الفواكه والخضروات. كانت المواد التموينية المتوفة هي الجافة مثل الرز والسكر والبقوليات والمعلبات أيضا، وكان يتندر على صديق له كان يحلم ويقسم الأيمان بأنه سيذهب لشراء أكبر أنواع الخس عندما تهبط الطائرة في مطار بيروت وقبل الوصول إلى عمان من شدة اشتياقه للخضار.

كان الشهر يونيو وذلك يعني بداية أشهر الصيف الحارة جدا في أبو ظبي، وحدث أن انقطع التيار الكهربائي فلم يكن في المنزل المروحة التي اعتادوا على الاستعانة بها لتلطيف الجو، فكان أن ذهب مع صديقه إلى السوق عل وعسى يمر الوقت سريعا، ولكنه عاد وهو يشعر بالضيق والتعب بسبب ارتفاع درجات الحرارة والرطوبة، وكذلك الحشرات الطائرة، والتي -حسب ما يصف- كانت تلتصق بالجسم من شدة الرطوبة، وفي اليوم التالي ذهب لحلاقة شعره ومازال تفكيره في قطع البعثة والعودة إلى الوطن يراوده ويزعجه في ذات الوقت، فها هي مدينة الأحلام لا تبدو كمدينة لتحقيق الأحلام، وهل سيكون القرار صائبا أو لا؟ وفي أثناء استغراقه في التفكير حدث أن شاهد طفلة إنجليزية تلهو مع والديها على الرمل في الجهة المقابلة لمحل الحلاقة، وكانت تبدو في غاية السعادة والحيوية، وكأنها كانت لحظه ملهمة، لوالدي حيث أخبرني بأنه بدأ يتأمل ويقول في نفسه: هذه الطفلة جاءت وأهلها من بلاد والرفاهية وتبدو وعائلتها في غاية السعادة، فلربما السعادة هنا ولكني لا أراها!!

وحصل أيضا ما شجع والدي على البقاء وهو قبول والدتي في البعثة التعليمية للعام الدراسي التالي، وبهذا تم لم الشمل من جديد، وعاد والدي إلى الأردن في شهر 8، ثم عاد مرة أخرى مع العائلة في بداية شهر سبتمبر، وكانت الرحلة هذه المرة من مطار بيروت إلى أبو ظبي دون المرور بالدوحة. استمر العيش في المسكن الشعبي، والذي له في ذاكرتي ذكريات ضبابية غير واضحة، أذكر منها تجمع أصدقاء العائلة في هذا المنزل ليلا، ووجبات العشاء والشطائر لنا نحن الأطفال، وأتذكر بأنه عندما كان ينقطع التيار الكهربائي كان الحل السريع هو تحضير الشاي والعشاء السريع والذهاب إلى البحر، حيث الجو هناك ألطف بكثير من البقاء داخل المنزل الحار، وأذكر أيضا أنه، وأثناء اللعب، داس أحدنا على مادة حادة مما استدعى نقله إلى المستشفى بشكل سريع، كما أتذكر الحديث عن المستشفى وأنه المشفى الوحيد وكان معدا من البري فاب للأبنية الجاهزة، ولكنه كان معدا بشكل جيد من أطباء ومستلزمات الإسعاف. وأتذكر أيضا كيف انتقلنا إلى بيتنا الجديد في عمارة الشيخ سرور وكم كانت فرحتنا كبيرة بالأثاث الجديد والمنزل المبرد ومحلات البقالة المنتشرة أسفل العمارة، وخاصة محلات بيع السمبوسة الهندية ورائحتها الشهية. كنت أذكر محلات «سبينيز» جيدا، وكيف كنا نتسابق، أنا وأخوتي، عندما يجلس والدي أمام المتجر للهرب من الحر الشديد، والحصول على حصة كبيرة من المثلجات الكريمة الرائعة، وما زلت أذكر جيدا محلات جاشنمال الأنيقة لشراء كل ما يلزم الأسرة، والبائع المتجول الذي كان يقوم بالتنقل في العمارة لتشتري منه السيدات ما يلزمهن، وبأسعار رخيصة جدا، كل ذلك كان في شارع حمدان والذي كان تحت الإنشاء ومعظمه كان عبارة عن رمل.

أتذكر مدرستي (مدرسة الخنساء الابتدائية) جيدا وأتذكر الأنشطة المدرسية، ومشاركتي بإحدى المسرحيات. نعم مسرح مدرسي في عام 1970، بينما الآن نجد في بعض المدارس من يعارضون فكرة إدخال الفن المسرحي أو الدراما الى المنهج المدرسي بداعي عدم أهميته؛ وأنه يأخذ من وقت الدراسة للمواد الأساسية، ويشتت انتباه الأطفال عن العلوم، بينما جميع نظريات التربية الحديثة تؤكد على أهم الشمولية في المناهج وتعدد الأنشطة لما لها من أهمية بالغة في بناء وصقل شخصية الأطفال. نعم، لقد كان المنهاج متكاملاً، وموزعاً توزيعاً يكفل تلبية جميع رغبات الطفل؛ من قراءة وكتابة، وعلوم، ورياضيات، وفنون، وموسيقى، ومسرح وكشافة... لم أسمع من والدي بأن هذه المناهج كانت غير مدروسة وستلوث عقل الطفل؛ لأن فيها التمثيل والموسيقى، وأنه من غير اللائق مشاركة الطالبات في حصص الفنون أو حصص الدراما!!! أتذكر جيدا حضور الأمهات لهذه المناسبات، وتوزيع الأكل قبل الفسحة، ومرور الأطباء والممرضات على الفصول للقيام بالفحوص الدورية للطلاب. كنت أشعر بالفخر والتباهي أمام زميلاتي بأن صورة الملك حسين كانت تزين الدفاتر والكتب، حيث كان يعتمد على المنهج الأردني في إمارة أبو ظبي، أما باقي الإمارات فكان المنهج الكويتي. أذكر أيضا أنني كنت من ضمن فريق المرشدات، وكنت أعزف على آلة الأكورديون، وكنا، كمدرسة، يتم إعدادنا وتدريبنا كثيرا للمشاركة في احتفالات نهاية العام ومهرجاناته. أتذكر بأن مدرستي كانت كبيرة وواسعة، وكنا -إلى جانب الواجبات المدرسية- نحظى بفترات كافية مسلية من المواد الفنية والرياضية. أذكر أن مدرستي كانت قريبة جدا من البحر حرفيا، ولم يكن هناك شيء يفصلها عنه، وأذكر كيف كنت أرافق والدتي وزميلاتها من المعلمات عند انتهاء الدوام إلى بائعي السمك المنتشرين على طول الشاطئ لشراء السمك.

وكان والدي قد عين مساعدا للمدير في مدرسة جابر بن حيان الثانوية صباحا، وفي المساء تتحول المدرسة إلى مدرسة للكبار، حيث أن عددا كبيرا من الموظفين لم يكن قد أنهى تعليمه بعد، ولأن التعليم كان هاجس الشيخ زايد -رحمه الله- وكان إيمانه بأن الإنسان هو ثروة البلد الحقيقية، كان التركيز على تأهيل الموظفين في الحكومة . وقام والدي وزميله الأستاذ أبو كف بوضع برنامج تعليمي متمايز، بمعنى وضع برنامجا تعليميا وتخصصا لكل متعلم اعتمادا على المرحلة أو الصف الذي أنهاه؛ فقد يكون في الصف أربعة أو خمسة طلاب، ولكنهم ليسوا بنفس المستوى التعليمي، فكان المعلم يقوم بتعليم كل طالب حسب خطة وبرنامج تعليمي يوائمان احتياجاته. وهنا أقف متأملا متعجبا من ذلك الجيل من المعلمين الذين كانوا يحرصون كل الحرص على تقديم الأفضل والأنجح والأكثر ملائمة للطلاب، ويتبعون آخر ما توصل إليه في فن التعليم وأصوله، وهو التعليم المتمايز، ويطبقون نظريات تعليمية حديثة جدا درسوها في منهاجهم وفي بلادهم، وجاؤوا ليقدموا كل ما لديهم، مندفعين بحب العمل والشغف في الإنجاز. نعم التعليم المتمايز أو تعليم المجموعات طرح في كتب التربية عند الغرب أمثال جون ديوي جون جاك روسو و هوارد جاردنر و غيرهم ولكن ما لا يعرفه الكثيرون أنه كان موجودا منذ أيام ابن سيناء والشافعي والغزالي وابن سحنون والزرنوجي وغيرهم من التربويين والفلاسفة العرب والمسلمين الذين شددوا على ضرورة التعليم حسب ميول المتعلم، والتنويع في التعليم حسب مستويات المتعلم، وأن يكون التعليم بمجموعات أو على شكل فردي حسب ما يقتضي الدرس وطبيعة المتعلم.

لم يكن هناك مراكز تدريب للمعلمين، ولكن كان يتم انتقاء المعلمين وترشيحهم بناء على شروط محددة تضمن كفاءتهم وقدرتهم على العطاء في ظروف مثل ظروف الدولة الناشئة الحديثة؛ لذلك نجد بأن المعلمين المبتعثين كانوا يشكلون نخبة متميزة؛ بدليل أنه بعد عودتهم إلى بلادهم تقلدوا مناصب متميزة، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور عبد الله النسور كان مديرا لمدرسة جابر بن حيان، وتدرج في المناصب حتى أصبح رئيس وزراء الأردن. ومنهم من أصبح مديرا لديوان الخدمة المدنية، أو مستشارا ثقافيا في سفارات الأردن المتعددة، أو أستاذا جامعيا ومديرا للمناطق التعليمية وغيرها من

المناصب الحساسة في الدولة، أما والدي فقد تقلد عدة مناصب عند عودته؛ بين مدير للمدارس، ومدير للمناطق التعليمية المختلفة، وأستاذ جامعي في كلية التربية، إلى أمين عام لجامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية. لم يكن هناك مراكز لتدريب المعلمين، ولكن كان هناك مراكز إشراف على المعلمين، وقد تم استحداث هذه الدائرة 1969، وكان معظمهم أردنيين وعراقيين. وهنا لابد من الإشارة الى أن المعلمين في تلك الفترة كانوا تعلموا في بلادهم من خلال المناهج الدراسية الشاملة، والتي كانت تضمن جودة نوعية وكمية المادة المعطاة مما انعكس إيجابيا على عطائهم المعرفي؛ حيث كانوا ملمين بكافة مواضيع العلوم العلمية والأدبية والمهنية، وكان المعلم يستطيع تغطية أكثر من مادة إذا تطلب الأمر وإنجاز المهام على أفضل وجه.

كانت المدرسة بمثابة مركز تعليمي وثقافي ورياضي وترفيهي للمجتمع المحلي، وملتقى لعمل اللقاءات والأنشطة الرياضية والترفيهية للطلاب والمعلمين وأولياء الأمور، فقد كانت تقام الندوات الثقافية فيها، حيث كان الديوان الأميري يحرص في تلك الفترة على دعوة الشخصيات المرموقة في الوطن العربي؛ من كتاب وأدباء ومؤلفين، وكانت تقام تلك الندوات في المدارس.

لم يكن التركيز على الجانب الاكاديمي فقط، فقد كان المنهج الأردني المعتمد في الإمارة يعتمد التعليم الشامل، بمعنى إدخال الفنون والرياضة والحرف اليدوية ونشاط الكشافة، كل هذه المواد كانت تدرس جنبا إلى جنب مع المواد الأكاديمية، وكانت هناك حصص دراما ومسرح، وكانت الأمهات يشاركن فيها ويحضرن المناسبات المختلفة في المدرسة مع بناتهن، ويحضرن الاجتماعات والمناسبات المدرسية المختلفة، بالإضافة إلى دورهن الجوهري والحساس في منزلهن والمتمثل في إدارة المنزل، وفي بعض الأحيان يساعدن الزوج ببعض المهن على نطاق ضيق كبيع الأسماك أو بيع بعض المواد التموينية.

كان للمرأة العربية أيضا نصيب وباع كبير في المساهمة بنهضة الإمارات، فلم يكن الابتعاث والانتداب مقتصرا على المعلمين الذكور، بل كانت هناك المعلمات اللواتي ينتدبن من البحرين والكويت ومصر، بالإضافة إلى الأردن وفلسطين، وكان لهن دور فعال في دفع عجلة التعليم في مدارس البنات في تلك الفترة.

وعلى الرغم من حداثة الدولة، وحداثة التعليم النظامي في الإمارة إلا أنه لم يتم إغفال دور ولي الأمر كعنصر فعال ومؤثر في العملية التربوية، فقد أخبرني والدي أن التواصل مع ولي الأمر سهل ومتاح، حيث كانت أبواب المدرسة مفتوحة لاستقبال الطلاب والأهالي ومحاولة جذبهم واستمالتهم ليكونوا عنصرا مؤثرا وإيجابيا في تعليم أبنائهم؛ من حيث حثهم على الانتظام في الحضور إلى المدرسة، وعدم التغيب والانضباط في السلوك، وكما ذكر غرهام ويلسن في كتابة كان من أهم الصعوبات التي واجهت عملية التعليم هي إقناع أولياء الأمور بإرسال أبنائهم إلى المدرسة، والتخلي عن دورهم في مساعدة أهلهم في العمل، سواء للبنات أم للبنين، لذلك نجد بأن إمارة أبو ظبي بعد الاتحاد أولت اهتماما كبيرا بهذا المجال، فقد قدمت كل التسهيلات لأولياء الأمور من أجل تشجيعهم على إرسال أبنائهم إلى المدرسة، كتخصيص رواتب شهرية للطلاب، ومجانية المدارس والمواصلات، وإعطاء وجبات تغذية في المدرسة، وتقديم الملابس... ومن الأمور الطريفة التي كان يذكرها والدي أن بعض أولياء الأمور كانوا يأتون للمدرسة لطلب إذن لأولادهم بالتغيب عن المدرسة لمدة «حول» عام كامل؛ وذلك لانشغالهم مع آبائهم في البر مع الإبل كمناطق بدع زايد والجيمي!!

كانت الحياة الاجتماعية بسيطة ولكن غنية في نفس الوقت؛ بسيطة من حيث قضاء معظم أيام الإجازات ونهاية الأسبوع في رحلات شواء على البحر... البحر الذي كان فارغا تماما ولم يكن هناك كورنيش أو أي عمارات أو نباتات مزروعة، وكانت رحلات الشواء على البحر لا تخلو من مغامرة؛ حيث كانت معظم السيارات تغوص عجلاتها في الرمال، وتتحول إلى مغامرات ممتعة لتخليص السيارات من الرمل من قبل الآباء والأطفال، بينما الزوجات منهمكات بتحضير وليمة جماعية.

كانت الحياة الاجتماعية والثقافية تشمل زيارة وفود رفيعة المستوى من الدول العربية مثل زيارة حاكم الكويت الشيخ صباح الأحمد؛ والذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب وزير الخارجية، وسفير الأردن لدى الكويت السيد نزال العرموطي، وسعادة ذوقان الهنداوي، وكان والدي ومدراء المدارس في ذلك الوقت يتم دعوتهم إلى هذه المناسبات، استشعارا للدور الكبير الذي تلعبه المدرسة والتعليم في نهضة الأمة وبنائها. كان والدي وزملاؤه، من مدراء المدارس والمعلمين، حاضرين دائما في جميع الندوات والمناسبات كتخرج دفعة من المدرسة العسكرية وما إلى ذلك من أنشطة واحتفالات.

من ذكريات والدي الجميلة كانت زيارة كوكب الشرق (أم كلثوم) إلى أبو ظبي وكانت كوكب الشرق تقوم بزيارات للبلاد العربية لدعم المجهود الحربي في مصر، أذكر كيف كان اهتمام والدي ووالدتي بهذا الحدث وحرصهم على الحضور؛ حيث قاما مع أصدقائهم بشراء التذاكر وحضور الحفل، وأذكر بأنه استمر الحديث عن ذلك الحفل لفترة بعد انقضائه.

وبعد عمله في مدرسة جابر بن حيان مساعدا للمدير ثم مديرا بالإنابة تم تعيين والدي مديرا لمدرسة افتتحت حديثا، وهي مدرسة (ابن دريد)، كانت نسبة كبيرة من الطلاب من سلطنة عمان، وبعد ذلك في العام 1970 تم افتتاح مدرسة (زايد الثاني النموذجية) وهي للمرحلة الإعدادية فقط، وتم تعيين والدي مديرا لها، وتم عمل معرض للأنشطة المختلفة في المدرسة وقام الشيخ زايد بافتتاح هذا المعرض. وقد تم بذل جهود كبيرة مع الطلاب، وكان المعرض مميزا، وقد تم إعداد فريق زايد لكرة القدم في ذلك العام وفريق الكشافة. ومن القصص الجميلة التي رواها والدي كانت عن فريق الكشافة؛ حين قامت مجموعة زايد الثاني الكشفية برحلة تخييم في منطقة بين العين وأبو ظبي، وحدثني والدي كيف أنه قام بزيارة المخيم في اليوم الثاني، وكان الطلاب قد أعدوا برنامج سمر متكامل؛ من مسرحيات ومسابقات وألعاب، وأثناء ذلك فوجئ الجميع بزيارة الشيخ زايد -رحمه الله- للموقع!!! ولم يكن هناك تصوير أو تغطية إعلامية للحدث، كونه كان بلا تخطيط مسبق، وحدثني والدي عن سعادة الشيخ زايد لكونه بين مجموعة الطلاب الكشافة وحينها قال لهم: «يا ولادي جدودكم حافظوا على هذه البلاد وهي فقيرة وما فيها شي وتمسكوا بها، وكانت غالية عليهم، أنتم واجبكم اليوم -بعد ما من الله علينا بالمال والثروات- أن تحموا هذه البلد وتحافظوا عليها وتتمسكوا بها أكثر من أجدادكم.» !!!

أخبرني والدي بان الحديث كان بسيطا وعفويا وعميقا، وترك أجمل الأثر في نفوس الجميع، ولقد استشعرت أنا نفسي ذلك من حديث والدي وإعجابه بالشيخ زايد رحمه الله.كانت علاقة والدي قوية جدا مع رجل التعليم معالي عبد الملك الحمر، وكان قد استشعر حب

وشغف وإخلاص والدي في عمله، وكان يدفعه ويشجعه دائما على الاستمرار ويؤكد له أن دولة الإمارات الفتية بحاجة لمن هم مثله، وعندما انتهت سنوات الإعارة لوالدي وكان ذلك في نهاية عام 1973 طلبت الوزارة الأردنية من المبتعثين العودة لمتابعة عملهم في الأردن، وعندها ذهب والدي مودعا للحمر، فطلب منه الأخير عدم العودة للأردن، وأخبره بأنه سيتولى موضوع تمديد إعارته هو ووالدتي من الأردن. عندها قال له والدي: أنت أيضا معار ومنتدب من دولة البحرين، ماذا لو طلبتك البحرين للعودة هل ستبقى أم ستعود؟ عندها أخبره بانه سيعود... وكانت هذه بداية العودة إلى أرض الوطن وبداية فصل جديد... هو العمل في الأردن والدارسة للحصول على درجة الماجستير والدكتوراه من إحدى الجامعات العريقة في جمهورية مصر العربية.

روابط المراجع

- محمد سالم غثيان الطراونة، أحوال التعليم الحكومي في إمارة شرقي الأردن في ضوء تقرير إدارة المعارف لسنة 1934م.
- دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 35، العدد 3، 2008.
- جراهام ويلسون، زايد رجل بني امة. الارشيف الوطني، 2013.
- تاريخ التعليم في الإمارات، ماجد خميس المنصوري 2015.
- مؤسسة إرث الأردن. تم زيارة الموقع 18 مايو 2021.
- عامر ابو جبلة الجبارات، النهضة التعليمية. وكالة عمون الاخبارية، 2021.
- التعليم في الامارات قديما، ياسمين جمعه. تم زيارة الموقع 18 مايو 2021.
- المدرسة الامارتية، علي بن حرمل. تم زيارة الموقع 18 مايو 2021.
- وزارة التربية والتعليم/الكويت. تم زيارة الموقع 18 مايو 2021.